مقـــدمة

على الرغم من أن الاهتمام العلمي بدراسة المدينة قديم نسبياً ، الا أن علم الاجتماع الحضرى لم يتطور بشكل ملموس الا خلال العقود القليلة الأخيرة • فمنذ بدايات القرن السابع عشر أبدى المخططون والمهندسون المعماريون والسياسيون والاقتصاديون اهتماما ملحوظاً بتسجيل التطورات والمشكلات التى تعرضت لها المدن الغربية على وجه الخصوص • غير أن القرن العشرين قد شهد اهتماماً لم يسبق له مثيل بالظواهر الحضرية المختلفة • ولا يعنينا هنا استعراض الانجازات العلمية التى ظهرت فى هذا المجال بقدر ما يعنينا تأكيد حقيقة أساسية هى ، أن المدينة قد أصبحت تشكل موضوعا أساسيا للعلوم الاجتماعية مجتمعة ، بحيث يصعب على علم بعينه فهم الواقع الحضرى بمختلف جوانبه • واذا كانت المدينة بحاجة الى جهود علماء الاجتماع ، فانها بحاجة أيضا الى جهود علماء الاقتصاد والسياسة والانثروبولوجيا والجغرافيا والسكان والتاريخ • إن تنوع مداخل دراسة المدينة لا يعنى العزلة العلمية بقدر ما يعنى الثراء الفكرى ، خاصة اذا ما كان الاهتمام متعلقاً بظاهرة معقدة متعددة الجوانب كالمدينة • وليس من الصدفة أن تكون المدينة موضوعاً أساسياً من موضوعات العلوم الاجتماعية بينما تفرض المشكلات الحضرية نفسها فرضاً على عالمنا المعاصر • واذا كان يحلو لبعض العلماء والمفكرين اطلاق بعض المسميات على القرن العشرين ، فاننى أميل الى وصفه « بقرن التحضر » • فعلى الرغم من أن الدول الصناعية الغربية قد شهدت تحضراً عالياً منذ مطلع القرن التاسع عشر ، الا أن هذا التحضر قد تعاظم خلال القرن العشرين ، ثم واصل تعاظمه بعد الحرب العالمية الثانية حينما حصلت معظم الدول النامية على استقلالها السياسى ، وبدأت تشهد ما يمكن أن نطلق عليه « انفجاراً حضرياً » • والواقع أننى لا أقصد بذلك « اختزال » الواقع الحضرى وتحويله الى مجرد قضية سكانية « فنية » ، بل أهدف الى توضيح الآثار البنائية الهائلة التى أحدثها هذا « الانفجار الحضرى » على عالمنا المعاصر •

إن التحليلات السوسيولوجية للمدينة لا تعانى من الندرة بقدر ما تعانى من إفتقاد النظرة التاريخية البنائية الشاملة التى تتجاوز وصف ما هو قائم لتصل الى تفسير لما حدث وما يمكن أن يحدث • ولسوف يرتكب علمـاء الاجتماع المعاصرون خطأ فادحاً اذا ما ظلوا أسرى النظرة « الوضعية » الضيقة التى تتغافل بعدى الزمان والمكان •

ويتضمن هذا الكتاب تحليلا تاريخياً بنائياً من منظور سوسيولوجى للمـدينة : ماضيها ، وحاضرها ، ومستقبلها • وهو ــ من هذه الزاوية ــ يختلف عن كثير من المؤلفات العربية والغربية فى عدد من الوجوه • فبينما نجده يركز على الظروف التاريخية التى أدت الى نشـأة المدن فى مختلف مناطق العالم ، يحاول أيضاً تحليل الواقع الحضرى المعاصر من وجهة نظر بنائية تنطلق من فهم الكل المؤلف من أجزاء لا مجرد الأجزاء المؤلفه للكل • ومن خلال هذه النظرة استطعنا فهم المدينة فى مختلف المناطق فى ضـوء التطورات التاريخية والمعاصرة التى تعرض لها عالمنا المعاصر • إن المدينة ليست مجرد نسق اجتماعى « محلى » تابع لنسق اجتماعى « قومى » ؛ إنها أيضاً وحدة أساسية من الوحدات المكونة للبناء العالمى الشامل • ومعنى ذلك أن المدينة لا تتأثر فقط بالتغـيرات القومية المحلية ، بل تتأثر أيضاً بالتحولات العالمية الخارجية • وفضلا عن ذلك أبدى هذا الكتاب اهتماماً كبيراً بدراسة مدن الدول النامية •اذ ظلت مؤلفات علم الاجتماع الحضرى تعتمد اعتماداً أساسياً على الدراسات والبحوث التى تناولت المدن الغربية • وأعتقد أن المشكلة الحقيقية التى تعانى منها النظريات السوسيولوجية التى تتناول التحضر تتمثل فى تجاهلها للغالبية العظمى من مدن العالم ، خاصة تلك التى تقع فى دول العالم الثالث • ومن هذه الزاوية يبدو اهتمامنا بالواقع الحضرى فى الدول النامية ، وان كان ما يلبث أن يزداد تخصصاً • اذ أننا قد أفردنا معالجة مستقلة للمدن فى منطقة الشرق الأوسط فى محاولة للكشف عن « العموميات » الحضرية من جانب ، و « الخصوصيات » الحضرية من جانب آخر • وعلى طول هذا الكتاب يلمس القارىء عدم الالتزام بالكتابة « المدرسية » • اذ أننا قد اتخذنا من القضايا أساساً للمناقشة المستفيضة ،

مستخدمين فى ذلك كل ما استطعنا الحصول عليه من شواهد ، وعلى الرغم من الصعوبات التى واجهناها فى هذا المجال بسبب ندرة الدراسات الواقعية فى بعض الأحيان ، الا أن ذلك لا يخلو من فوائد محققة ، لعل أهمها التعرف على الثغرات النظرية والمنهجية التى تعانى منها الدراسات الحضرية المعاصرة .

وفى ضوء هذه الاعتبارات أمكن تقسيم هذا الكتاب الى ثلاثة أبواب تنقسم الى عشرة فصول ، بالاضافة الى خاتمة وقائمة ببليوجرافية . ففى الباب الأول الذى حمل عنوان « المدينة بين التطور التاريخى والنظرية الاجتماعية » نجد الفصل الأول منه يتناول المدينة عبر التاريخ ، فيكشف عن الجذور التاريخية للمدن فى مختلف مناطق العالم ابتداء من الحضارات القديمة حتى عصرنا الحديث . أما الفصل الثانى فيناقش العلاقة الجدلية بين المدينة والحضارة حيث يحاول التعرف على الدور الذى لعبته المدينة فى ازدهار الحضارة الانسانية والنتائج المترتبة على ذلك . وتحاول هذه المناقشة تحليل بعض القضايا الايديولوجية المتصلة بالتحضر تحليلا تاريخيا . ويتناول الفصل الثالث المدينة والبناء الاجتماعى فيكشف عن العلاقة المعقدة بينهما فى نمطين من المجتمعات المعاصرة : المتقدمة والنامية . ولقد قصدنا بهذا الفصل أن يكون بداية لمزيد من الاهتمام بالدراسات الحضرية المقارنة بهدف الوصول الى نظريات أكثر صدقا وواقعية . أما الفصل الرابع والأخير من هذا الباب فيناقش المدينة بين المكان والسكان ، حيث يتناول بالتفصيل وجهتى نظر أساسيتين فى دراسة التحضر هما : الايكولوجيا والديموجرافيا . ومن خلال هذه المناقشة يمكن التعرف على الأهمية النسبية التى تحتلها الاتجاهات النظرية المعنية بدراسة المدينة . أما الباب الثانى من هذا الكتاب فقد اختص بمناقشة المدينة فى الدول النامية حيث تناول فى ثلاثة فصول متتابعة (من الخامس حتى السابع) نشأة المدن ومشكلاتها فى كل من أمريكا اللاتينية وآسيا وأفريقيا . ولقد حاولنا فى هذه الفصول الثلاث التعرف على نفس المشكلات الحضرية فى كل من هذه القارات الثلاثة ، مما قد يساعدنا على تشخيص أفضل لها وتحليل أدق لنتائجها . أما الباب الثالث فقد تناول

المدينة فى دول الشرق الأوسط ، حيث تضمن ثلاثة فصول اختص الأول منها بتتبع مدن الشرق الأوسط تتبعاً تاريخياً فى محاولة للتعرف على الأنماط والأشكال التى اتخذتها على مدى فترة زمنية واسعة • ويناقش الفصل التالى مشكلتى الهجرة الريفية ــ الحضرية والنمو الحضرى فى منطقة الشرق الأوسط ، حيث نجد تحليلا ضافيا لهاتين المشكلتين فى ضوء التنوعات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التى تشهدها هذه المنطقة • ويحاول الفصل الأخير التعرف على ملامح البناء الطبقى الحضرى فى منطقة الشرق الأوسط كما عبرت عنها الدراسات العديدة التى أجريت فى هذا المجال • ولقد آثرنا تذييل هذا الكتاب بخاتمة تناولت مستقبل المدينة فى ضوء مناقشاتنا المختلفة •

وفى ختام هذه المقدمة أود أن أتقدم بالشكر والتقدير لكل من أسهم بشكل مباشر أو غير مباشر فى انجاز هذا الكتاب • وأخص بالذكر زميلى وصديقى الدكتور محمد الجوهرى الذى شجعنى على مواصلة الكتابة فى هذا الموضوع الشائك • كما أتوجه بالتحية لأسرة قسم الاجتماع بجامعة قطر التى ظللت عضواً فيها طوال فترة انجاز هذا الكتاب • لقد أتاح لى العمل بهذا القسم لأربع سنوات متتالية فرص التكريس والانجاز والصفاء الفكرى ، التى بدونها كان يستحيل ظهور الكتاب على هذا النحو الذى يبدو عليه • أما الدور الذى لعبته زوجتى من أجل انجاز هذا العمل فيفوق الوصف ، لذلك فان دينى لها هو أعظم الديون • الى كل هؤلاء أتوجه مرة أخرى بالتحية والتقدير ، راجياً أن يحظى هذا الكتاب بالاهتمام الذى يتناسب مع الجهد الذى بذل فيه •

القاهرة فى ١٥/٧/١٩٨٠

السيد الحسينى